سکون

سكون

الكاتبة: فاطمة هاني عبدالله

الطبعة الأولى

2017م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(/2016)

عبدالله ، فاطمة هاني
سكون / فاطمة هاني عبدالله ، عمان.- دار أمجد للنشر والتوزيع،2016.
( ) ص
ر.إ: /2016
الواصفات: /

ردمك : -ISBN:978-9957-99

Copyright ©
جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار أمجد للنشر والتوزيع
عمان الأردن وسط البلد مجمع الفحيص الطابق الثالث
Tel: +9624652272 Mob: +962796914632
Fax: +9624653372 +962799291702
+962796803670
dar.amjad2014db@yahoo.com dar.almajd@hotmail.com
facebook

إهداء

لمن اجتاح كياني بعبارة مزلزلة

مشجعة لي على النهوض

إلى أمي، إلى فلسطين، وإلى معلمتي الغالية عائشة

مصطفى والى عائلتي بأسرها

خيالات واهمة واسئلة عابرة، تأخذنا نحو بعد آخر،

بعد أشد كآبة،

يزيدنا مرارة وغصة عالقة، تتردد على الشفاه المحنقة،

تتمنى الحرية الأزلية، ولكن أنّى لمحروق دواء،

في غابة تعتريها أشواك من جوانبها المقمرة بين

الوحوش الضارية وقسوة الحياة.

أللخيال رونقٌ جميل؟!

أم أنه يقمع الأمل ويزرع اشواكاً محنطة، لا أدري ربما لايحقُّ لنا الخيال، ربما علينا الإستئذان أولا، فما نحن سوى شوكة عالقة، في بنطال قماش أزالتها الرياح، بعيدا وارتمت على سور قديم، حاملة معها ذكريات داميَّة، أنا هنا أحاول وصف الحقيقة، بمنظار الحياة بمنظار زخرفي جميل ولكنَّ....

الشّمس الحارقة، تذهبني لعالم وحشي آخر ..

اه كم اشتاق إلى الشمس، وأشعتها الذهبية وليوم صيّفي جميل، ربما لن اراها ثانيةً، وسأظل غصة عالقة هناك يتمنون موتها.

ما أنا سوى شخص جردته الحياة، من أوسمتها الناصعة، ونبذته في العراء على الأرضية باردة.

وهل يحقُّ ليَ الاعتراض ؟

فالصمت سلاحي إزاء أوهام ثلاثية الابعاد، أم أنه الصَّمت المقنَّع لجبال من اليأس.

ولدُّت من بطن والدة حنون، لا أذكر منها سوى شبح جميل، غير واضح المعالم،

بعد أن ...

ذهبت لبعد آخر بعد ثالث، لم أدركه الاَّ في العاشرة من عمري، وهنا تكمن قسوة الذكريات اذ تضرب بسهامها الحارة قلبا أحرقته الوحدة وتدَّعه يتعارك بصمت بغير رأفة مع عالم الماضي البعيد، متعلقا بحكايات قديمة وأشياء مادية بسيطة تعني الكثير.

اذكر صراخاً وغباراً، ربما قطرات من الدم المتناثر ايضاً..

ورائحة الياسمين التي ظلَّت عالقة في أنفي الصغير .

أذكر أيضاً بيتاً واسعاً، ذا ساحة صغيرة، تكتنفها أشجار الزيتون بحب دافق، وتتمايل الأشجار بسعادة غامرة، وتتراقص بطرب على ألحان الرياح العذبة ضاربة اجنحتها في عروق الاصالة الجبارة.

كنَّا نحتسي الشاي فيها، وقت الأصيل، على أنغام وتراويد الأرض، معانقة سماءً برتقاليةاللون، تحتضن قرصاً أصفر يذوب في الأفق، لتعطي بريقاً مزدوجاً، كنت استمع مشدوهاً لحكاية جدتي عن "الغولة"و"جبينة"وبين هذي وتلك، ضحك يشوبه خوفٌ طفوليٌّ جميل.

أتذكر أيضا صحن الفاكهة الأزرق، الذي كان يتوسط مجالس الحديث والسهر، كان أبي موجوداً أيضا، بشخصيته القوية، وقلب يعشق الصمود، يقلب الحديث، ويتناوب المجادلة.

علياء ..كانت هناك أيضاً، مع لعبتها الصغيرة، كنت أتصيَّدُ لها دوماً، وأشد شعرها الاسود الناعم، حينها ترتفع صرخات أمي، بحب واسع الأفق أترك أختك يا حسن لا تضايقها كنت طفلا، جميل السنحة، ذكي الطالع، نبيه الفكر، ربما أبالغ قليلاً، لكنَّ حياكة النسيج لا تتم بلا أخطاء في الغرز، لذا اجتاحت سحابات القدر، سماءنا الزرقاء، محولةً إياها إلى قطع من الحلوى، تنتظر من يقضمها، بإتقان جذَّاب ..

وفي ليلة سوداء حالكة، غاب فيها القمر، معلناً حداداً، على كلمات سقطتْ في الهاوية.

سمعتُ صوتَ دوي مدفع قوي، اجتاثني من نومي العميق، خارجاً بلهفة، تحت وقع الصاعقة، دفعني والدي مع علياء للخارج.

وبات يفتش عن والدتي بين الانقاض، علبة عطرها الزجاجيَّة، تحطمت كالهشيم، وانتشرت رائحة الياسمين، لتعطي الموقف بريقا خاصاً، وظلت رائحة الياسمين تذكرني بفاجعة صارخة، مغطاة

بالدم والألم وكأنها تسخر مني بجاذبيتها المذهلة و ذاكرتي المحترقة .

لمحت عيناي بوضوح، عيني ذلك المدرع المتأرجح، أمام منزلنا المحطم، ينظر للدمار والتشرد بسعادة غامرة، وكأنها اللحظة المنتقاة والحلم المنشود، ينظر للوحة جميلة، رسمها متقنٌ محترفٌ، ربما تلك هي النشوة الحقيقية، ربما أيضا منزله سيُبني هنا وسنترك بالعراء، لم يعد هذا بيتنا وتلك ارضنا بل أصبحت ملكا لشخص آخر وعالم آخر بلا اي اتفاقات وعقود وانما تنازلات وقوة وعذاب، زرع للصمت

الأبدي لمكتوم مجروح الهوية والكيان، وجعلت النوم نعت لمنعوت أبله غائب الحضور، ومن بين الشتات، اشتعلت حرقة في جسدي، اثر ظلام قد غشي السماء فانتزع النور من حقب الزمن.

وكأن جزءاً من جسدي انتشل ولم يعد ثانية، أُخذ لهاوية سحيقة، ازدادت ظلاماً على ظلامها الأجوف، وهاهي والدتي تخرج من بين أكوام الحجارة على أكف والدي، المترقرق الدموع، منكس الرأس.

لكنَّ شرارة ما كانت هناك، تلمع في عينيه ناظرة الى أكفه الداميّة، شرارةٌ اكتنزها لنفسه، هرعت اليه ..علَّني أجد الراحة في قبلة من أمي الغالية تُهدأ الجوف الملتهب، فوجدتها مغطاة بنسيج من الدم، وكأنه اللؤلؤ الخالص، تسبح على كيَّان القدر، مبتسمةً بوجهها الأبيض، الذي اختلطت معالمه بين المصرع والنهاية...أيقنت وقتها آن الأوان قد فات واختطفها شبح الموت بعيدا، اشعر وكأنني في أبعاد مبعثرة لا ادري ما هيتها، زوابع مبعثرة كلمات متصاعدة، تزاحمت الأفكار في دماغي، حاولت

الصراخ فلم استطع علقت صرختي بصمت في حنجرتي تناضل هناك، حاولت مرارا وتكرارا والفشل الفشل نتيجة محتمة لكل محاولة، هل انا في كابوس زمني، استيقظت على صوت علياء تشهق بصمت وتبوح للعالم سرا من أسرار البشرية الغامضة .

التفت حولنا البشريّة، محاولةً، سحب الذاكرة منّا، ولكنّ جسد أمي المغطى بقطعة قماش بيضاء حريرية، اجتاحها الدّم، ولم يبقَ منها سوى بضع زوايا بيضاء، تخبر الناظر، بالأمل الساطع، وتخفي الحزن الدافق...

لم نفقد أمي هناك فحسب، وإنما تركنا العز والكبرياء، وتركنا الخيال ايضاً والحب بلا حدود، ودعنًّا آخر ما تبقى من جرعة الحريّة، وأُجبرنا على الذّل والفقر، في مخيمات اللجوء.

نشكو الفاقة والمرض، ننتظر الأكف البيضاء، لتسقينا من الذل والعار، وتسقط الكرامة إزاء احتياجات الإنسان، وتركض إلى ابعد الأفق، أدخلني والدي مدارس العار، أتعلم القهر والسلام في بلد محموم، وبقع ساخنة، أما علياء فقد كان لها مصيرٌ آخر، أشد قمعاً وإضمحلالاً، لكل معالم الطفولة، كانت في الرابعة عشر حين زفت لعريسها، على تراويد أغنية حزينة، وأنا أحاول جمع آخر تفصيل منها، كي أذكره في صحائفي الخياليّة، بين هنيهة وأخرى، وعلى وجنتيها اللامعتين، رأيت دمعة

صغيرة، عالقة بقهر تريد الخروج والتحرّر، نظرت إليَّ بحزن مثل غزال، وقع في الأسر، يتعذب بالاشتياق، ويحترق بالحب، نظرت إليّ بصمت، وكأنها تتفرسني وتحاول نقش صورتي، على مخيلتها، لأنها ستذهب لقطر آخر، قطر ربما يكون الأفضل، ستسافر للبعيد، وعلى شوارع عمّان ستنظر لنجمتنا، وتسأل الله لنا الحفظ والرعاية، لم أكن أريدها أن تذهب، ولكنّ القدر شاء لها، وسحبها منّي لأبعد مما كنت أظن..

فكانت السكون وقتها، علامة مميزة لي وقت الوداع الأخير، فكانت لابتسامتها حينها جاذبية خاصة، ويكأن القمر اجتاح وجنتيها، بإبتسامة قصيرة المدى قوية الأثر...

فقرٌ متقع وفاقة، وعندما يهطل المطر نغرق في ماء حقيقي، أو يضُّر الغريقَ زيادة الماء؟!فنحن غارقون في الذّل، غارقون في الفقر، غارقون في الماء أيضا، فماذا يضر إن كنَّا غارقين في الدم كذلك؟!..

كنت وقتها في السادسة عشر، أحمل شمعةً، ذات خاصيّة ذوبان مغايرة، ربما تريد الإحتراق، ولكن هناك من يعاندها، ويجبرها على قسوة العيش والظلم.

كان والدي يعمل تحت أكفهم، تحتَ أكف الظلم والاستبداد؛ ليجنيَ نقوداً كافيةً لسد رمقنا وتعليمي، الذي وددت الخلاص منه، لم أعلم كيف النجاة، وكيف النهاية، لذا كنت طريدة سهلة، للدخان والمخدرات، بدأت قصتي بسيجارة واحدة، اعتقدت أنها الانعاش من الغيبوبة الزمنيّة، حيث كنت اذهب

إليهم، إلى صداقة الخراب والفساد الأخلاقيّ والانحطاط، لم أعدْ أسأل قطُّ عن والدي ودراستي، بل عنهم ومنتجاتهم، كنت أنا الورقة الرابحة بين ايديهم، يبعثرونها كيفما شاءوا، أصبحت سارقاً أيضاً، من محفظة أبي كي أجمع سعرها، ربما كي أحصل على نشوتها المؤقتة، وعذاب فقدانها الزمني.

تردأت صحتي، وأصبحت مريض الجسد، أتمنى جرعة نيكوتين أخرى، وفي ظل ذلك أفسدت علاقتي الوطيدة مع والدي، واشتعل منزلنا بالشتيمة

والسباب، واحترقت أحلامي في سراديب الهاوية، ربما لم تعد لأحلامي اي أهمية تذكر .

سقطتُ يوماً على الأرض وقد هدني التعب، وغزى أعضائي بأكملها، حتى أنه جردني من حواسي وجعلني كالوعاء المثقوب، لا نفع ولا فائدة ترجى منه، أغمضت عيني بعمق وسبحت في تيار زمني صاعد، ابحث عن كياني في صفحات الذاكرة المبعثرة، أفتش بسرعة عن شيء محدد، لا ادري ما هو، ربما صورتي الحقيقيّة، التي لم أجد سبيلاً للوصول إليها، استيقظت على صوت أحدهم من

جماعة الفشل والدمار، استيقظت حاملاً أسارير معينة،

وهل هم ثقة أكاشفهم بخفايا النفس وزلاتها..

انجررت في سلسلة طويلة من المعاصي، لا حدودَ ولا نهاية..شهوات ولذات والقلب لا يجد السعادة...

طريق طويل بدأته، رغبة في النجاة والخلاص، من طريق أشد وضوحاً، معالمة ظاهرةٌ للعيان،

انسقت لآخر مجهول النهاية، بلا حدود بلا عوالم أو مظاهر، صعب الخلاص، ذو رائحة نتنة، اقترب من سواد لسواد آخر، لأنفاق اخرى لا نور ولا نجاة، ربما كان قراري خاطئاً،

وحياتي من فشل الى فشل، لذا قررتُ الانتحار، والخلاص من الهاوية السحيقة، وحينما نصبت الحبل وظننتُ أنني وحدي هناك، رأيت شيئا ما يجاورني بل ويلاصقني .

أرى الانعكاس واضحا، صورة لشاب التصق بالقبر، لم أكن ذلك الذي جرته مصائب الدهر، وارتمى على بوابات القدر، كان شخصاً آخر، مختلفاً تماماً، يعتريه الحزن واليأس، أو ربما هو أنا بقلب، ينزف على أوتار الزمن، لا أدري علَّ الإجابة تكتنزها تلك هذه المرآة التي صورتني شبحاً هزيلاً.

من أنا، سؤال زلزل كياني وبات يلاحقني كشبح خفي .

نزلت من على كرسي الانتحار، أتنفس الحياة من جديد .

قابلتُ صديقي أو عدوي لم أعد اذكر الآن مخافي قصة أشعلتها نيران الحماسة، اخذتُ حقنة في الوريد، سرَّت قشعريرة ما في جسدي . وعلى اثرها، شاهدني أولئك من كان لهم دورٌ في انعاش الميت الحي، فما كان منهم سوى الاتصال بالشرطة، وفي دقائقَ معدودة حوصرنا، وأُخذنا لسجن العذاب العقيم، ننساق كالبهائم.

انتشرَّ خبرنا على ارجاء الأرض، وكأنما داءٌ ووباء، تجمهر الناس حولنا، وسيارة الشرطة تقرع الآذان، وقتها تلاقت النظرات بيني وبين والدي ونظرة اليّ..

نظرَ اليَّ نظرةَ الخزي والعار، الجمع ينظر الى والدي، أي كيف صنعت هذا الوحش القذر، ووالدي يخيّم عليه صمت رهيب، أما أنا فالسكون سكونٌ تامٌ أخذني بعيدا، وأي كلمة تقال في موقف كهذا .

أخذني بعيدا حقاً نحو غرف ارضيّة، بدأ تاريخي هناك، فلست اذكر عنواناً او قصة إنما تاريخٌ متشابكٌ مع سلسلة من الأحداث الزمنية، التي تجوب في تسارع مذهل.

نزلتُ للمنفردة، وهنا بدأت قصة المأساة، واشتعلت حياتي بوجع المصير، بين الجلد القاسي، وأسئلةٌ تطرح عليَّ بلا إجابة، فيزداد الجلدُ والقذف الى أن يصل الإحراق بالنار، لم تكن النار حارقةً، كوجع قلبي الملتهب، انما زادتني وجعاً على وجع.

وبعد يأس مني، نُقلت لسجن الجماعي، ضوءٌ اصفرٌ خافت، يخفي معاناةً شعبية مريرة، زنزانةٌ صغيرة، ترمى فيها أكوامُ اللحم المجسدة، رمي الكلاب على أعتاب الجبال.

لم أرَ ترحيبا وتصفيقاً، وإنما وجومٌ صاعقٌ وفراغ، اشتقتُ لشمس حرية زائفة، اشتقت لعتاب أبي المتكرر، حتى انني تذكرتُ أمي، وعلياءَ أيضاً.

اشتعلت أحلامي وباتَ النومُ لهيباً حارقاً على سلسلة أحزان مهولة.

اتساءلُ يومياً عن الفرج، بضع سنوات أخرى، الكلُّ يسأل الحريّة، حرية تحت استيطان، مثل بذرة جميلة أسفل تربة جافة، لا تجد السقاية والرعاية.

أيُّ حريّة تلك حرية الملاجئ، حرية الخيال المخيف من المستقبل المجهول، ولكن تبقى تلك الكلمة الهاجس الوحيد للخلاص من كابوس الافكار الرهيبة.

أريد النجاة من الفراغ المتقع، لذا بدأتُ اتوغلُ بين الاقران، أسأل عن أسباب سجنهم، منهم من يجيب بكل برودة وقسوة وكأنني أنا من سرقت حريته واخفيتها في الجبال الشاهقة كي لا يرها احد.

ومنهم من يخبرني عن الثورة والانتفاضة، ويشعلني حماساً وبريقاً،

وتبدأ خلايا جسمي ترتعش وتلفظ بضعا من النيكوتين المالئ جسمي حتى أخمص قدمي.

لكن يبقى الفراغ عدوي، الذي جرني لأفكار غريبة لعوالم صعبة، لا ادري من أكون، والاجابة تبقى صاعقة مرسلة اليَّ من أواسط القدر.

ولدتُ في بلد مختار، أجل من بين سبع قارات، في كرة أرضيَّة فسيحة، قارة آسيا، ومن بين دولها المغروسة، في قلبها الكبير، ذلك الشريان العظيم الذي ينزف باستمرار، ويعطي العالم بأسره قواعدَ لنضال والثبات "فلسطين" اختيرت لتكون بلدي ووطني بل وجنسيتي وتتحكم في مصيري المكتوم.

وددت لو أنتهي وأموت، لأذهب إلى بعد آخرَ، سئمتُ حياةَ السجن والفراغ المتقع، والوجوم والعبوس، أشخاصٌ يطلبون حريّة زائفة، هناك من يضربُ عن الطعام، وهناك من يعذب بانسجام.

اهترئ جسمي من كثرة الضرب واللكمات، حتى صارَ كخيمة خربة، تجمع السقام، ما باليد حيلة، أودُّ النجاة بشدة، وبينما أنا في مجمع افكاري ذاك، سمعتُ صوتاً غريبا..

صوتٌ ما انعشني، ربما قشعريرة سرّت في جسدي وقتها، لا اذكر بالتفصيل فخلايا دماغي تعطلت ولم اعد قادراً على التفكير .

قفزتُ نحوه، أتخبط بالظلام، سائراً الى فتحة النور، ماذا تراه يكون ؟!، أكان موجودا منذ الأزل ولكنني لم اسمعه قطّ بهذا السحر مطلقاً، ربما لأنني بتُ ذلك الأصم الجريح .

صوتٌ عذبٌ ينادي من أصابته الحياةُ برياحها الشديدة، يناديهم لعالم اشدُّ راحةً ووقاراً.

حيث السكينة ترقدُ على وشاح الغيوم البيضاءَ المطمئنة، هرعتُ لأرى مصدرَ الصوت، شيئ ما يدفعني للركض، لأستجمع قوتي، لأرى الأمل .

ركضتُ بقوة كبيرة، ويكأن سوطاً ما يلسعني على ظهري لأخرج وأتنفس الهواء.

شخص ما سجين ما، سجينٌ لكنه طليق، حر الطموح والغاية، كان هناك يرفع الآذان، ماذا؟! الآذان ..

وكأن إعصاراً ما يلتف بذاكرتي المحترقة محولاً إياها الى بستان خرب.

أحاول أن أتذكر آخر مرة سجدت فيها، آخر مرة أقبلت لله بركعة، أعرف الصلاة وأدرك ماهيتها، اعرف أركانها بوضوح .

كنت مضطربا وقتها، خطوت المكان الذي خصصوه للصّلاة، وازددتُ تعرقاً لا أدري ماذا يحدث ُ لأعضاء جسمي ربما تتبلور بمعدل تبريد بطيء، محطمة آخر قطرة للشجاعة، شعرت وكأن العالم تبعثر وجسدي تناثر.

ربما لم يكنْ عليَّ القدوم والولوج إلى هنا، سأعود بأدراجي، وستمحو الرياح آثار اقدام العابرين.

بدأت أرتجف ربما لأنني احتاج المخدرات، أحتاجها أكثر من أي وقت مضى .

شخصٌ ما هزَّني، ودفعني للأمام، قرع بوابةَ التفكير الزمني، قائلا:"رح تبلش الصلاة يا الحبيب استعجل اشوي"

شدَّ على يدي وسرنا سويَّةً نحو المصلى.

اقتربتُ من الإمام، شعرتُ بنفحات غريبة، بتُ الآن أكثر توتراً، أكثر اقتراباً، ومعَ الفاتحة شعرتُ بدمي، شعرتُ بشيء ما يسري في عروقي، وكأن الحياةَ تدفقت إلى جسدي، و أعلنت العودةَ، وكأن الحداد انتهى، ودخلت الشمس قلبي.

نور الصباح بات يجوب أعماقي، أسرتني اشعة الشمس بحب عجيب، واكتنفتني برعاية براقة، لم تعد تلك الشمسُ الحارقة التي أخشى لهيبها وانما اصبحت بريق أمل، وفي السجود اختلط الأمر تبعثر الزمان توقف فجأة وترقرقت دموعي بشدة رهيبة.

لا أدري أين كنت عن هذه السعادة الأبدية، واتبعتُ نشوةً مؤقتةً، كانت لتكلفني حياتي .

ومع السلام شعرتُ بسلام، سلام داخلي مهول، يهبط على زوايا عقلي، ويهدأُ من روعي، لم أعد بحاجة لمخدر، هطل المطر فجأة وأطفأ نيران الحقد نيران الشهوة اطفأها بسرعة مذهلة.

وهناك وفي الزاوية، شخص آخر يقرأُ القرآن، يرتلهُ على شفاهه، ويخرج صوتاً رائعاً، التصقت به لأستمع، بكل قوى التلاصق، فقد اشتممت راحة

مهولة، فوجدتها هناك، أخذتُ المصحف من يديه، وبدأت ارتعش، فتحته وبدأت دموعي بلانهمار .

ثقلٌ ما ازيح عن صدره، فأخذ قلبي ينبض بحرية، أهي الحرية المرتجاة، ربما، تنفست الصعداء، وحملق الجميع فيّ باستغراب وذهول .

فتحتُ المصحفَ الشريف، ويدايَ تهتزان من هول الحادثة، وإذا بأحدهم يقول " شكلك عمرك ما قرأت القرآن".

ماذا اجيبه حينما عجزت كلمات اللغة الواسعة، ان ترد تلك الصفعة المدويّة "اه عمري ما قرأته" لم تحملني النفس على قولها .

ها أنا أجد طعما حلوة، ملذة رائعة، لم اعرفها قطّ في حياتي، وإذا بي أقرأ سورة الرحمن، لم اقرأ القرآن في حياتي السابقة، بل وكنت اهزأ بالقراء وبالتجويد .

ومن اول كلمة، تفجّرت أساريري، ووجدتُ نفسي أرتل وأقرأ، وأتلعثم أحيانا .

أحببت القرآن وطلبت من زميلي، صاحبَ المصحف تعليمي التجويد، وكنت طالباً جيّداً منصاعاً، لأوامره وتعاليمه.

وهكذا عاصرتُ القرآنَ، وغُسل قلبي من الأورام والأوجاع . وبعد مدة استلمت الإمامة في ذلك المسجد الصغير، كان صوتي جميلا عذباً، ربما بالغت الوصف، ولكن كان ذاك بشهادة من كان يصلي خلفي من المساجين الحبوس، انقلبت حياتي تغيرت نظرتي للعالم لقواعد الزمان والمكان للقدر ايضا ربما وللموت كذلك .

وفي لحظة ما، وعلى وقع الصلاة، داهمنا الحراس على غير عادتهم،

فقد كنَّا نسعى جاهدين، لأن نصلي بغير علمهم، ولكنّ القدر ساقهم إلينا، واقتادوني للمنفردة من جديد بتهمة التحريض، نعم تحريض للصلاة يهابونها كالسلاح يخافون اصطفافنا يرتجفون من تكبيراتنا وكأنه الرمح ذو النصل القاسي الضارب في عقر دارهم الغابرة.

لا أعلم لما أشعر بان أموريَ الحياتيَّة تتبعثرُ احياناً كثيرةً، دون أن تجد احداً ليجمعها، ويرتبها، فأرى نفسيَ ضائعا، غائب الحضور.

مرّت أيامُ العذاب المضني ؛ لأعود لسجن الجماعي من جديد، بعزيمة أقوى، وقلب يعشقُ الطموح، وبدأنا بإعلان الثورة في السجن .

أضربنا عن الطعام، وارتفعت اصوات الصلاة من مهجعنا، ومن هنا زادت شدة عذابنا، بتهمة الإرهاب .

اعتبرونا إرهابي الهُوية والجسد، أستهجن من يمارس الإرهاب، و يدعي دحضه في نفس الوقت، معادلةٌ غير موزونة، وجمع للتناقضات، يأخذنا بعيدا، يسرون المسيرات ويوقعون تعهدات ويتفننون بخطابات غبية تدحض الإرهاب وتحتقره، و الإرهاب يغطيهم يزيدهم نجساً على نجس.

وهكذا مضت سنون السجن، بما حملت من عذاب وذكريات، أصبحت الآن كالسراب، ولكنني خرجت قويُّ العنان والساعد، وتعلمت في السجن النهوضَ والحماس، فقد صبّ وصهر فيّ قلب

المناضل وتعلمت عشق الارض من الارض والى الأرض.

خرجتُ شخصاً آخر، فسيح الجبين، تعلمت كلمة وطن، وحفرتها على جبين الأمة، بزاوية قدرها تسعين .

رقمٌ على هُوية زائفة، حدودٌ زائفة، حرية بحدود، فصلٌ لشمال عن الجنوب، خرجتُ لأتنفس الهواء، هواءٌ جديد، سجينٌ سابق وعذاب آخر، خرجتُ لأرى تقسيمات جديدة، وتعهدات ومؤامرات بين الهنا والهناك، وعذاب مقيم اعتقالات بالجملة،

سخط شعبي وصمت عربي ورضا عالمي وتستمر الحكاية.

هرعتُ لأرى وجه أبي الفسيح، كي امحو نظرات الحزن والأسى، وأخطُّ اسماً جديداً، بذكريات جديدة .

دخلتُ المخيم بين زفة الخارج ودموع الاهل، افتشُ عن والدي، اعانق الشّمسَ وسماءَ الحرية الزرقاء.

افتش عن والدي بين الوجوه الضاحكة، مستبشرة بقدوم السجين، وشعرتُ بخيبة أمل حينما لم اجده بين الجموع، ظننته عند شجرة الزيتون، يراجع الحسابات أو يغني تراويداً للقمر.

ذهبت وعدت بخفي حنين، لم أجد والدي ولا اوراقه وحتى غليونه الصغير، تساءلتُ في وجوم عنه، فكانت الفاجعة الكبرى، وكأن طلقة ما أصابتني في منتصف القلب، كيف ذاك وكيف قُتل ؟

"أبوك شهيد يا حسن، مات على الحدود لمّا كان رايح يشوف عليا"

شرارةٌ ما انقدحت في قلبي، وعند قبر أبي جثيتُ باكياً، وكأن ثقلاً ما، وُضع بزاوية معينة، على قلبي الزجاجي المتهشم، ولكنّ شخصاً ما كان هناك، شخصٌ ساندني وساعدني على النهوض سعياً للحياة .

نظرت اليه نظرة المشتاق، كان صديقي هو ذاته صاحب المصحف في السجن، نهضت بصعوبة، وتنهدت بألم.

ولكن آنَّ للحياة أن تستمر، وتعود لمجراها الطبيعي، ولمجرتها المُثلى، لذا بدأنا بإشعال الثورة، أعلم أننا مجرد أرقام، في لائحة طويلة المدى، إلّا أن لكل رقم ميّزته الخاصة، وسحره العجيب، شيء يجعله متميزا عن أقرانه.

لم أكن الرقم واحد بالطبع ولا خاتمة اللائحة، وإنما أردت تخليد رقمي، أيًّا كان على سجلات الذاكرين، لقد آن لطاقة الشاب أن تثور، ويعود الأمل، آن لفترة المراهقة أن تنتهي مخلفة زلاتها لريح، وتطلق العنان لما بعدها .

أرقامٌ تتبعثر هنا وهناك، على زوايا القدر المكتوم، وتخفي فاجعة عظمى، تبتسم على محياها، بطوله لها جذور عميقة، متعمقة الأصول والكيَّان، صحيح أننا خسرنا الكثير، وما زلنا نخسر كل يوم، ولكنني أؤمن بالنصر المحتم، بأن الله مع الصابرين، حيثما صبروا .

أعلم أن للقمة، أدراجاً متلاطمة صعبة الوصول، ولكن عليّنا المحاولة، حقا لا ضيّر من المحاولة .

اجتمعنا بقوة الرجل الواحد، كلٌّ بفكر وعقيدة، ربما بدين مختلف أيضا، لكنَّ الجامع والرابط القوي، حرية حقيقية، ووصول لسماء زرقاء، بعد أن أنهكها الظلام، رفعنا شعارات على بوابات القدس تنذر بوجودنا ولحريتنا ذاهبون.

انطلقت الثورة واشتعلت المدن، من رام الله لحيفا والقدس وغزة .

وعلى البحر المتلألئ وقفت هناك أنظر للبعيد أراقب الأفق، وهنا سألني صاحب المصحف "وإلى

ماذا تنظر" فأجبته إجابة رأيت على إثرها الوجوم :

أنظر للحرية للبعيد..

فقال: لا حرية للعرب، ولا للعالم أجمع بلا حرية حقيقية لفلسطين، كلمات سرت في عروقي، وجعلتني أنبضُ بقوة للحياة .

وفي ليلة شتوية باردة، اجتمعنا لنعلن الخطوة التالية، نظرت بنظر ثاقب، وأعلنت البداية؛ لحديث استمر لساعات، منهم من أقرَّ الهزيمة والفشل، ومنهم من رفع الانتصار وسار على الدرب الأطول والأخطر .

لا أحد حقا يعلم بخطورة الموقف، بين معاهدات السلام الكاذبة، وجسور المحبة المحطمة، هدم للبيوت وقتل للأطفال، لذا قررنا القتال، فما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بها .

وبدأ الجهاد بأسلحة حربية قليلة، ربما أخذناها من مخازنهم، أو ربما من قتلاهم، إلى أن وصل العدد ثمانية عشرة بندقية، يحملها أبطال شجعان، ويكأن الشجاعة لم تغرس إلى في قلوب شباب فلسطين .

كنّا جميعا قادة للنصر والكفاح، تشربنا من القهر وجعلناه سوراً للكفاح، لم اعدْ ذاك الفتى الذي فكر بالانتحار يوماً، بل بات شجاعاً خارقا، يستند عليه رفقاه وقتَ الحصار.

وفعلاً صعدنا الجبل، وبدأنا باطلاق النار، وقلبي يتراقص بين جوانحه، وأشعلنا مضاجع الصهاينة لهيبا حارقاً.

وكانت العديد من الحركات المتصاعدة، إضافة لإعلام زائف، يبهرج الحقائق ويزيّن الوقائع، كيفما شاء .

لكنّ كانت هناك رغبة جامحة، للنصر المؤزر، انطلقنا بين الشّعاب، على احدى الثكنات العسكرية وهاجمناهم.

حوصرنا على الجبل فلم تعد البوصلات الزمنية تعمل، وما كان لنا سوى ربّ يحمينا، من المهول القادم، بين الأمطار والجوع كلمة " لا اله إلا الله " كانت حاضرة بقوة، تخرج من أفواه المجاهدين، بصدق وإخلاص، وجاء الفرج على أقدام امرأة ريفية، بسلة خضار تناولناها سدت رمقنا حتى انتهاء الحصار.

وضعنا خطة محكمة، لنضع قصة بلا نهاية حقيقية، وإنما هي ام البدايات الجديدة، ومن هنا حوصرنا بثلاثة جهات مختلفة، لم نجد للمهرب فتحة ولا زاوية، ولم يكن الخضوع طريقنا ولن يكون .

اطلق علينا النار ...

أشعر بالرصاصة في كل جزء مني، اشعر بأنها اختلجت صدري، وجعلته سريرها الناعم، أشعر وكأنني أحيى حياة بحرية حقيقية، لم اشعر بها في حياتي الأولى، احب معانقة السماء والأرض وما بينهما، فلم يبقَ لي الّا حبات الثرى، التي احتضنها

برفق، ليخرج مني الألم، لأتطهر للابد ؛ ليخرج مني ويعانق الأرض، وأشعر بسلام، لن تكون نهاية حتما، وانما بداية لصراع آخر، يحتم عليّنا المضي قدماً، في بعد آخر، ربما لرؤية عالم أشد روعة وأناقة.

لقد آن الأوان لزوال السكون، تلك الحركة الإعرابية المهولة، التي حطت ركابها، على أكتاف العربية، أسرت أصحابها بصمت مذهل .

تمت